مجموعة سيرة الرسول ﷺ

بإشراف

محمد أحمد برانق

٢

النشأة

الطبعة الرابعة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

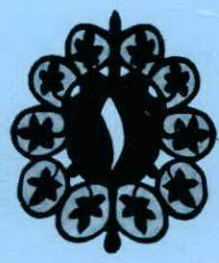

« أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى ، وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى » ؟ !

فَلَمْ تَتَخَلَّ عِنَايَةُ اللهِ عَنْ مُحَمَّدٍ بَعْدَ مَوْتِ أَبَوَيْهِ ، إِذ وَجَدَهَا فى جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، ثُمَّ وَجَدَهَا فى عَمِّهِ أَبى طَالِبٍ .

كَفَلَ أَبُو طَالِبٍ ابْنَ أَخِيهِ مُحَمَّداً بَعْدَ مَوْتِ جَدِّهِ ، إِذْ عَهِدَ إِلَيْهِ أَبُوهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِرِعَايَةِ مُحَمَّدٍ وَأَوْصَاهُ خَيْراً .

لَمْ يَكُنْ أَبُو طَالِبٍ أَكْبَرَ إِخْوَتِهِ سِنًّا ، وَلاَ أَكْثَرَهُمْ مَالاً ، وَلٰكِنَّهُ كَانَ أَكْبَرَهُمْ هِمَّةً ، وَأَكْثَرَهُمْ نُبْلاً ، وَأَطْيَبَهُمْ قَلْباً ؛ فَلاَ عَجَبَ أَنْ عَهِدَ إِلَيْهِ أَبُوهُ

بِمَا عَهِدَ ، وَأَوْصَاهُ بِمَا أَوصَى .

وَأَحَبَّ أَبُو طالِبٍ ابْنَ أَخِيهِ مُحَمَّداً كَحُبِّ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَهُ مِنْ قَبْلُ ، حَتَّى لَكَانَ يُقَدِّمُهُ عَلَى أَوْلاَدِهِ ، وَيُؤْثِرُهُ عَلَى نَفْسِهِ ، لِمَا كَانَ يَلْمِسُ فِيهِ مِنَ الصِّدْقِ وَالأَمَانَةِ ، وَيَجِدُ فِيهِ مِنَ النُّبْلِ وَالْعِفَّةِ ، وَيَلْحَظُ عَلَيْهِ مِنْ آياتِ الذَّكَاءِ وَعَلاَمَاتِ النَّجَابَةِ .

وَمَضَتْ أَرْبَعُ سَنَوَاتٍ وَمُحَمَّدٌ فِى كَنَفِ عَمِّهِ : يَنْمُوجِسْمُهُ ، وَيَتَّسِعُ عَقْلُهُ ، وَتَتَفَتَّحُ مَدَارِكُهُ .

وَبَلَغَ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ فَصَارَ لَهُ جِسْمٌ قَوِىٌّ مَتِينُ الْبُنْيَانِ ، وَلَهُ عَقْلٌ راجِحٌ ، أَلْمَعِىُّ الذَّكَاءِ ، وَلَهُ رُوحٌ عَظِيمَةٌ مُحِيطَةٌ وَاعِيَةٌ .

وحَارَ أَبُو طَالِبٍ فِى أَمْرِ هٰذَا الْفَتَى ، الَّذِى بَلَغَ مَا بَلَغَ ! وَأَدْرَكَ مَا أَدْرَكَ ! وَهُوَ مَازَالَ دُونَ سِنِّ الْحُلُمِ ! فَعَامَلَهُ مُعَامَلَةَ الرِّجَالِ الرَّاشِدِينَ ، وصَارَ يُبَادِلُهُ الرَّأْىَ مُبَادَلَةَ النِّدِّ لِلنِّدِّ .

وَلِذٰلِكَ لَمْ يَتَرَدَّدْ أَبُو طَالِبٍ فِى اسْتِصْحَابِ مُحَمَّدٍ مَعَهُ حِينَ أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ

فى رِحْلَةِ صَيْفٍ لِتِجارَةٍ بِالشَّامِ ؛ مَعَ أَنَّهُ كَانَ مُقَدِّراً مَاسَيُصَادِفُهُ مِنْ عَنَاءِ السَّفَرِ ، وَوُعُورَةِ الطَّرِيقِ .

وَسَارَتْ قَافِلَةُ التِّجَارَةِ ومُحَمَّدٌ فى رَكْبِهَا ، يَتَأَمَّلُ فِيمَا يَرَى ، وَيُفَكِّرُ فِيمَا يَسْمَعُ ، وَيعِى فى مُخَيِّلَتِهِ كُلَّ مَا يَرَاهُ .

وَمرَّ الرَّكْبُ بِبِلاَدٍ كَثِيرَةٍ ، وَنَزَلَ بِمُدُنٍ مُخْتَلِفَةٍ ، حَتَّى حَطَّ بِمَدِينَةِ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ .

وَكَانَ مِنْ عَادَةِ تُجَّارِ قُرَيْشٍ ، كُلَّمَا أَتَوْا إِلَى بُصْرَى أَنْ يَحُطُّوا رِحَالَهُمْ ؛ وَيُنِيخُوا إِبِلَهُمْ فِى مكانٍ ظَلِيلٍ ، يُجَاوِرُ صَوْمَعَةَ رَاهِبٍ اسْمُهُ بَحِيرَا ، وَيَبْقُونَ فى هٰذَا الْمَكَانِ حَتَّى يَنَالُوا قِسْطا مِنَ الرَّاحَةِ ، وَحَتَّى يَتَصِلُوا بِعُمَلاَئِهِمْ مِنَ التُّجَّارِ .

وحَطَّتِ الْقَافِلَةُ فى هٰذَا الْمَكَانِ ، وَانْصَرَفَ رِجَالُهَا كُلٌّ لِشَأْنٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ جَلَسَ لِيَسْتَرِيحَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ مَدَّ مَائِدَتَهُ لِيَأْكُلَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ شَرَعَ يُعِدُّ بَضَائِعَهُ لِتَصْرِيفِهَا ، وَ . . .

وَمرَّ وَقْتٌ وَهُمْ فى حَالِهِمْ هٰذَا ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ رَسُولٌ يَقُولُ : إِنَّ الرَّاهِبَ بَحِيرَا يَدْعُوكُمْ جَمِيعاً إِلَى طَعَامٍ أَعَدَّهُ لَكُمْ .

وَنَظَرَ الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مَدْهُوشِينَ يَتَسَاءَلُونَ :

لِمَاذَا يَدْعُوهُمُ الرَّاهِبُ إِلَى طَعَامِهِ الْيَوْمَ ؛ وَمَا كَانَ يَدْعُوهُمْ مِنْ قَبْلُ عَلَى كَثْرَةِ مَامَرُّوا بِهِ وَجَاوَرُوهُ ؟ ! .

ولٰكِنَّهُمْ لَمْ يَسَعْهُمْ إِلَّا أَنْ يُلَبُّوا دَعْوَتَهُ ، فَذَهَبُوا جَمِيعاً إِلَى حَيْثُ أَرْشَدَهُمُ الرَّسُولُ ، إِلَّا مُحَمَّداً فَقَدْ تَخَلَّفَ لِحَدَاثَتِهِ ، وَصِغَرِ سِنِّهِ ؛ وَقَابَلَ بَحِيرَا الْقَوْمَ بِسُرُورٍ وتَرْحِيبٍ ، وَقَالَ لَهُمْ :

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ : أُرِيدُ أَنْ تَجْلِسُوا إِلَى طَعَامِى ، وَأَلَّا يَتَخَلَّفَ أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنْهُ . قالُوا :

لَقَدْ جِئْنَاكَ جَمِيعاً ، وَما تَخَلَّفَ عنَّا إِلَّا غُلَامٌ حَدَثُ السِّنِّ !

قَالَ بَحِيرَا : بَل ادْعُوهُ ، فَمَا يَنْبَغِى أَنْ يَتَخَلَّفَ !

وَزَادَتْ دَهْشَةُ الْقَوْمِ لِدَعْوَةِ بَحِيرَا لَهُمْ ، ثُمَّ إِصْرَارِهِ أَلَّا يَتَخَلَّفَ عَنْ دَعْوَتِهِ

أَحَدٌ . فَقَالُوا لَهُ :

يَا بَحِيرَا ، لِمَ دَعَوْتَنَا الْيَوْمَ ، وَمَا كُنْتَ تَدْعُونَا مِنْ قَبْلُ ؟ !

قَالَ : إِنَّكُمْ ضُيُوفٌ جَاوَرْتُمُونَا ، فَأَرَدْتُ أَنْ أُكْرِمَكُمْ ، وَأَقُومَ بِوَاجِبِ الضِّيَافَةِ حَيَالَكُمْ .

قَالُوا : واللهِ إِنَّ لَكَ لَشَأْناً :

وَذَهَبَ رَسُولٌ إِلَى مُحَمَّدٍ حَيْثُ كَانَ مُتَخَلِّفاً إِلَى جِوَارِ رَحْلِ عَمِّهِ ، فَأَتَى بِهِ إِلَى بَحِيرَا حَيْثُ يَنْتَظِرُهُ هُوَ وَضُيُوفُه .

وَمَا إِنْ وَقَعَتْ عَيْنَا بَحِيرَا عَلَى مُحَمَّدٍ حَتَّى تَعَلَّقَتَا بِهِ ! وَلَمْ تَطْرِفَا عَنْهُ ! .

فَلَمَّا فَرَغَ الْقَوْمُ مِنْ طَعَامِهِمْ ، وَتَفَرَّقُوا هُنَا وَهُنَاكَ يَتَفَرَّجُونَ عَلَى صَوْمَعَةِ الرَّاهِبِ الَّتِي يَتَعَبَّدُ بِهَا ، وَيَطُوفُونَ بِأَرْجَاءِ الْمَكَانِ – اقْتَرَبَ بَحِيرَا مِنْ مُحَمَّدٍ ، وَقَالَ لَهُ : يَا غُلَامُ ، أَسْأَلُكَ بِاللَّاتَ وَالْعُزَّى إِلَّا مَا أَخْبَرْتَنِي عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ ! ! .

قَالَ مُحَمَّدٌ لَاتَسْأَلْنِي بِاللَّاتَ وَالْعُزَّى .

قَالَ بَحِيرَا : فَبِاللهِ إِلاَّ مَا أَخْبَرْتَنِى عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ !

قَالَ مُحَمَّدٌ : سَلْنِى عَمَّا بَدَالَكَ أَنْ تَسْأَلَ عَنْهُ .

فَجَعَلَ بَحِيرَا يَسْأَلُ مُحَمَّداً أَسْئِلَةً تَتَعَلَّقُ بِأَحْوَالِ مُحَمَّدٍ ، وَيَسْتَفْهِمُ مِنْهُ عَنْ عَادَاتِهِ وَطِبَاعِهِ ؛ وَمُحَمَّدٌ يُجِيبُ عَنْ كُلِّ مَا يَسْأَلُهُ عَنْهُ وَيَسْتَفْهِمُهُ مِنْهُ . حَتَّى أَقْبَلَ أَبُو طَالِبٍ عَلَيْهِمَا يَدْعُو مُحَمَّداً إِلَى الانْصِرَافِ مَعَهُ .

فَسَأَلَ بَحِيرَا أَبَاطَالِبٍ : مَايَكُونُ لَكَ هٰذَا الْغُلاَمُ ؟ ! .

قَالَ أَبُو طَالِبٍ : هُوَ ابْنِى !

قَالَ بَحِيرَا مُنْكِراً : مَاهُوَ بِابْنِكَ ، وَمَا يَنْبَغِى لِهٰذَا الْغُلاَمِ أَنْ يَكُونَ أَبُوهُ حَيًّا ؟ .

فَدَهِشَ أَبُو طَالِبٍ لِمَا يَحِيطُ بِهِ بَحِيرَا مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ ، وَقَالَ : إِنَّهُ ابْنُ أَخِى .

قَالَ بَحِيرَا : وَأَبُوهُ ؟ !

قَالَ : مَاتَ وَهُوَ جَنِينٌ فِى بَطْنِ أُمِّهِ ؟

قَالَ بَحِيرَا : صَدَقْتَ ، فَارْجِعْ بِابْنِ أَخِيكَ إِلَى دِيَارِهِ ، وَاحْذَرْ عَلَيْهِ يَهُودَ ، فَوالله لَئِنْ رَأَوْهُ ، وَعَرَفُوا مَا عَرَفْتُ لَيَبْغُنَّ بِهِ شَرًّا ، فَإِنَّ ابْنَ أَخِيكَ هٰذا كَائِنٌ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ !

وَانْصَرَفَ بَحِيرَا وَهُوَ يُتَمْتِمُ : لَقَدْ صَدَقَ حَدْسِي حِينَ رَأَيْتُ الْغَمَامَةَ تَتَطَامَنُ وَتَنْخَفِضُ فَتُظَلِّلَ هٰذَا الصَّبِيَّ ! .

عَادَ أَبو طالِبٍ بمُحَمَّدٍ إِلَى مَكَّةَ ، وَهُوَ يُفَكِّرُ فِيمَا قَالَ الرَّاهِبُ بَحِيرَا ، وَفيمَا تَنَبَّأَ لِمُحَمَّدٍ به ! وَعادَ مُحَمَّدٌ مِنْ أَوَّلِ رِحْلَةٍ لَهُ خَارِجَ بِلاَدِهِ يَسْتَعْرِضُ مَارَأَى فِيها ، وَيتَأَمَّلُ فِيمَا سَمِعَ خِلاَلَهَا .

شَاهَدَ صَحْرَاءَ وَاسِعَةً ، وَجِبالاً عَالِيَةً ، وَرَأَى رِيَاضاً نَاضِرَةً وَحَدَائِقَ يانِعَةً . جَازَ وِهَاداً وَنجَاداً ، وَمرَّ عَلَى مُدُنٍ وَقُرىً ؛ وَسَمِعَ كُلَّ مَادَارَ حَوْلَهُ مِنْ حَدِيثٍ عَنْهَا ، وَمَا قِيلَ عَنْ مَاضِيهَا وَعَنْ أَحْدَاثِهَا .

شَاهَدَ نَاساً يَعْبُدُونَ مَا يَعْبُدُ قَوْمُهُ ! وَرَأَى نَاساً يتَّبِعُونَ مَا أُنْزِلَ مِنْ كُتبٍ !

وَسَمِعَ عَنْ نَاسٍ يَعْبُدُونَ النَّارَ ! وَنَاسٍ يَتَعَبَّدُونَ حَوْلَ صَنَمٍ مِنْ حَجَرٍ ! وَنَاسٍ يَسِيرُونَ وَرَاءَ مَايُوَجِّهُهُمْ إِلَيْهِ أَحبَارُهُمُ الْيَهُودُ ، وَنَاسٍ يَتَّبِعُونَ مَايُرْشِدُهُمْ إِلَيْهِ كُهَّانُهُمُ النَّصَارَى .

وَفِى وَسَطِ هٰذَا التِّيهِ الْمُظْلِمِ كَانَ مُحَمَّدٌ يَسْتَعْرِضُ ، وَيَتَأَمَّلُ ؛ تُلِحُّ عَلَيْهِ الأَفْكَارُ ، وَتَبَادَرُ إِلَى ذِهْنِهِ الْخَوَاطِرُ :

مَنْ مِنْ هٰؤُلاءِ النَّاسِ عَلَى صَوَابٍ ؟ وَمَنْ مِنْهُمْ عَلَى خَطَإٍ ؟ ! مَنْ مِنْهُمْ وَرَاءَ الْحَقِّ ؟ ! وَمَنْ مِنْهُمْ وَرَاءَ الضَّلالِ ؟ ! أَيْنَ الْحَقُّ ؟ ! وَمَا هُوَ ؟ !

وَحَاوَلَ مُحَمَّدٌ – الصَّغِيرُ السِّنِّ الْكَبِيرُ الْعَقْلِ – أَنْ يَنْفُذَ بِبَصِيرَتِهِ إِلَيْهِ ، وَيَتَعَرَّفَ كُنْهَهُ ، وَيَخْرُجَ بِهِ مِنَ الظَّلامِ إِلَى النُّورِ !

تَجَنَّبَ مُحَمَّدٌ لَهْوَ الأَطْفَالِ ، وَنَأَى بِنَفْسِهِ عَنْ عَبَثِهِمْ وَهَذَرِهِمْ ، وَانْصَرَفَ إِلَى تَتَبُّعِ كُلِّ مَا يَظْهَرُ لَهُ مِنْهُ قَبَسٌ يَهْدِيهِ ، أَوْ شَارَةٌ تُرْشِدُهُ !

كَانَ يَخْرُجُ مَعَ قَوْمِهِ وَآلِهِ إِلَى أَسْوَاقِ عُكَاظَ . وَمَجَنَّةَ وَذِى الْمَجَازِ : وَهِىَ أَسْوَاقٌ كَانَتْ تُقَامُ بِجِوَارِ مَكَّةَ فِى الأَشْهُرِ الْحُرُمِ الَّتِى يَحْرُمُ بِهَا الْقِتَالُ ، وَتُوقَفُ

فِيهَا الْحُرُوبُ ، وَفِيهَا تُعْرَضُ بَضَائِعُ مِنْ شَتَّى الأَنْوَاعِ ، وَتُجْلَبُ إِلَيْهَا تِجَارَةٌ مِنْ مُخْتَلِفِ الْبِلادِ ، وَفِيهَا تُنْشَدُ الأَشْعَارُ وَتُخْطَبُ الْخُطَبُ ؛ وَفِيهَا يُبْدِى كُلُّ ذِى رَأْىٍ رَأْيَهُ ، وَيَنْشُرُ كُلُّ ذِى مَذْهَبٍ عَقِيدَتَهُ ؛ كُلٌّ حَسَبَ مَبْدَئِهِ وَشَرِيعَتِهِ ، دُونَ مَا خَوْفٍ وَلاوَجَلٍ ، فَالْكُلُّ آمِنٌ مُطْمَئِنٌّ ، لأَنَّهُ فى الأَشْهُرِ الْحُرُمِ .

وهُنَاكَ فى هٰذِهِ الأَسْوَاقِ الْمُكْتَظَّةِ الْمُتَبَايِنَةِ الْمُتَجَانِسَةِ ؛ كَانَ مُحَمَّدٌ يَجِدُ أَمَامَهُ الآفَاقَ الْوَاسِعَةَ لِدِرَاسَةِ النَّاسِ وعَقَائِدِهِمْ ، وَيَتَعَرَّفُ وَجْهَ الْخَطَإِ وَالصَّوَابِ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ .

فَإِذَا مَاٱعْتَكَفَ وَخَلاَ بِنَفْسِهِ ، جَلَسَ يَسْتَخْلِصُ لِعَقْلِهِ مَايَرَاهُ حَقًّا ، وَيَنْبِذُ عَنْهُ مَا يَجِدُهُ بَاطِلاً . وَكَانَ مِمَّا سَاعَدَهُ عَلَى هٰذَا التَّأَمُّلِ ؛ مَا كَلِفَ بِهِ وٱرْتَضَاهُ مِنْ مِهْنَةِ رَعْىِ ٱلْغَنَمِ . كَانَ يَخْرُجُ بِأَغْنَامِ أَهْلِهِ ، وَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَعْهَدَ بِأَغْنَامِهِ إِلَيْهِ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى رُءُوسِ ٱلْهِضَابِ وَٱلْبِطَاحِ ، حَيْثُ يَجِدُ بَرَاحاً لِأَغْنَامِهِ ، وَيَجِدُ حُرِّيَّةً وَمُتَنَفَّساً لِرُوحِهِ !

وهُنَاكَ أَيْضاً كَانَ يَجِدُ أَمَامَهُ الآفَاقَ الْوَاسِعَةَ لِيَهِيمَ مَعَ خَيَالِهِ ، وَيُحَلِّقَ مَعَ

أَفْكَارِهِ ، ويَسْبَحُ فى مَلَكُوتِ اللهِ الْعَرِيضِ الْوَاسِعِ يَتَدَبَّرُ ويَتَبَصَّرُ .

وهٰكَذَا قَضَى مُحَمَّدٌ سِنِى صِبَاهُ ، وسِنِى شَبَابِهِ ؛ لاَ كَمَا يَقْضِيهَا الأَطْفَالُ والشَّبَابُ : لَعِباً ولَهْواً وعَبَثاً ! بَلْ قَضَاهُمَا رَزِيناً رَزَانَةَ الرِّجَالِ ، عَفِيفاً عِفَّةَ الشُّرَفَاءِ ، مُفَكِّراً بِعَقْلِ الشُّيُوخِ !

لَعِبَ ذَاتَ يَوْمٍ – وهُوَ طِفْلٌ حَدَثٌ – مَعَ لِدَاتٍ لَهُ فَكَانَ الأَطْفَالُ يَرْفَعُونَ ثِيَابَهُمْ إلى ما فَوْقَ رُءُوسِهِمْ ، يَلْتَفِعُونَ بِها ، ثُمَّ يَحْمِلُونَ الأَحْجَارَ بِحُجُورِهِمْ ، يَنْقُلُونَها مِنْ مَكَانِها إلى حَيْثُ يَتَّخِذُونَ مِنْهَا لَهْواً لَهُمْ . فَكَانَ مُحَمَّدٌ مِنْ بَيْنِهِمْ يَشُدُّ ثِيَابَهُ حَوْلَ جِسْمِهِ لاَ يَرْفَعُ ثَوْبَهُ كَما يَفْعَلُ أَتْرَابُهُ تَأَدُّباً وَتَعَفُّفاً ! !

وَدَعَاهُ دَاعِى الشَّبابِ يَوْماً ، فَمَالَ إلى مَازَيَّنَ لَهُ شَابٌّ مِنْ إِخْوَانِهِ الرُّعَاةِ فى أَنْ يَلْهُوَ لَيْلَةً كَمَا يَلْهُو شَبابُ مَكَّةَ . فَعَهِدَ إلى زَمِيلِهِ هٰذَا أَنْ يُلاَحِظَ لَهُ أَغْنَامَهُ ، وَسَارَ يَبْغِى مَكَانَ اللَّهْوِ وَالْمُتْعَةِ ! وَفى طَرِيقِهِ سَمِعَ نَغَماً مُوسِيقِيًّا يَنْبَعِثُ مِنْ إِحْدَى الدُّورِ ، فَفَضَّلَ أَنْ يَجْلِسَ لِيَسْمَعَهُ ، فَجَلَسَ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ ، فَغَلَبَهُ النَّوْمُ ، فَنامَ ؛ وَلَمْ يَسْتَيْقِظْ حتَّى طَلَعَ النَّهَارُ ، وَأَيْقَظَتْهُ حَرَارَةُ الشَّمْسِ بِشِدَّةِ لَفْحِهَا ،

فَعَادَ إِلى زَمِيلِهِ ، فَسَأَلَهُ زَمِيلُهُ :

مَا فَعَلْتَ يَامُحَمَّدُ فى لَيْلَتِكَ ؟

قَالَ مُحَمَّدٌ : جَلَسْتُ أَسْتَمِعُ إِلَى نَغَمٍ مُوسِيقِىٍّ فَغَلَبَنِى النَّوْم !

فَلَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ التَّالِيَةُ ، حَثَّهُ الزَّمِيلُ عَلَى أَلَّا يَفُوتَهُ مَا فَاتَهُ فى اللَّيْلَةِ الأُولَى .

وَبَيْنَمَا مُحَمَّدٌ فى طَرِيقِهِ إِلَى سَهَرَاتِ مَكَّةَ ، امْتَلأَتْ أُذُنَاهُ بِمُوسِيقَى جَمِيلَةٍ ، كَأَنَّمَا هِىَ مُوسِيقَى السَّماءِ ، فَجَلَسَ أَيْضاً يَسْتَمِعُ إِلَيْها فَغَلَبَهُ النَّوْمُ ، فَنامَ !

وَهٰكَذَا عَصَمَ اللهُ مُحَمَّداً مِنَ الزَّلَّةِ الَّتِى أَرَادَ الشَّبَابُ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَيْهَا ! وَحَفِظَهُ مِنَ الْمُغْرِيَاتِ الَّتِى تُغْرِى سَهَرَاتُ مَكَّةَ شَبَابَهَا بِهَا ! وَلَمْ يُفَكِّرْ مُحَمَّدٌ بَعْدَ ذٰلِكَ فى غَيْرِ مَا كَانَ يُفَكِّرُ ، وَلَمْ تُغْوِهِ غَوَايَةٌ بَعْدَهَا تَخْرُجُ بِهِ عَنِ الأَمَانَةِ وَالْعِفَّةِ !

فَكَانَ سَامِياً فى عِفَّتِهِ ! عَلماً فى صِدْقِهِ ، مِثَالِيًّا فى أَمَانَتِهِ .

فَلاَ عَجَبَ إِذَنْ وَلاَغَرَابَةَ أَنْ سَمَّاهُ أَهْلُ مَكَّةَ : « الأَمِينَ » .

وَعَرَفَ مُحَمَّدٌ ضَرْبَ النِّبالِ فَتىً ، ثُمَّ عَرَفَ حَمْلَ السِّلاَحِ شَابًّا ، وَوَقَفَ إِلَى جَانِبِ أَعْمَامِهِ فِى حَرْبِ الْفِجَارِ يَصُدُّونَ عَنْ قُرَيْشٍ قَبِيلَةَ هَوَازِنَ حِينَ طَلَبَتْ الثَّأْرَ لأَحَدِ أَبْنائِهَا مِنْهُمْ .

وَكَانَتْ نِهَايَتُهَا حِلْفاً اتَّفقَ عَلَيْهِ الْفَرِيقَانِ ، وَعَقَدَاهُ فِيمَا بَيْنَهُمَا . وَسَمَّيَاهُ حِلْفَ الْفُضُولِ وَكَانَ مُحَمَّدٌ مِنْ حَاضِرِى هٰذَا الْحِلْفِ .

وَمَرَّتْ سَنَوَاتٌ ، تَفَرَّغَ أَهْلُ مَكَّةَ فِيهَا إِلَى مَا كَانُوا غَارِقِينَ فِيهِ مِنْ لَهْوٍ وَضَلاَل ، وَشَرابٍ وَمُجُونٍ . وَتَفَرَّغَ مُحَمَّدٌ إِلَى خَلْوَتِهِ مَعَ أَغْنَامِهِ بِفَسَحَةِ أَجْيَاد ، حَيْثُ فُسْحَةُ الْهَوَاءِ وَفُسْحَةُ الرُّوحِ ، تَرْعَى عَيْنَاهُ أَغْنَامَهُ ، وَتَرْعَى روحُهُ فِى مَدَارِ الْكَوْنِ !

فَهٰذِهِ هِىَ حَيَاةُ مُحَمَّدٍ ! وهٰذِهِ هِىَ غَايَتُهُ ! وَهٰذَا هُوَ مَا يَسْكُنُ إِلَيْهِ ! وَحْدَةٌ وَتَفْكِيرٌ فِى نِظَامِ الْكَوْنِ ، وَخَلْوَةٌ وَتَأَمُّلٌ فِى إِحْكَامِ تَدْبِيرِهِ ! فَرَعْىُ الأَغْنَامِ يَكْفِيهِ ! وَفَضَاءُ الْبَادِيَةِ يُغْنِيهِ ! وَالْنْفِرَادُهُ لِنَفْسِهِ وَلِرُوحِهِ وَلِقَلْبِهِ يُلْهِمُهُ

وَيَهْدِيهِ .

أَمَّا عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ فَكَانَ يَسْعَى وَيَكُدُّ فِى طَلَبِ مَايَعُودُ بِالرِّزْقِ وَٱلْخَيْرِ عَلَيْهِ وَعَلَى ٱبْنِ أَخِيهِ وَأَوْلَادِهِ ٱلْكَثِيرِينَ .

وَذَاتَ يَوْمٍ جَاءَ أَبُو طَالِبٍ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقَالَ لَهُ : يَاٱبْنَ أَخِى ، أَنَا رَجُلٌ لَامَالَ لِى ، وَقَدْ اشْتَدَّ الزَّمَانُ عَلَيْنَا . وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ تَسْتَأْجِرُ ٱلرِّجَالَ فِى ٱلْخُرُوجِ بِمَالِهَا لِلتِّجَارَةِ ، فَهَلْ لَكَ أَنْ أُكَلِّمَهَا ؟

قَالَ مُحَمَّدٌ : مَاأَحْبَبْتَ يَا عَمِّى ! !

وكانتْ خَدِيجَةُ امْرَأَةً ذَاتَ شَرَفٍ وَحَسَبٍ ، مِنْ بَنِى أَسَدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْعُزَّى ابْنِ قُصَيٍّ ٱلْجَدِّ ٱلرَّابِعِ لِمُحَمَّدٍ . تَزَوَّجَتْ مَرَّتَيْنِ مِنْ رَجُلَيْنِ مِنْ أَغْنِيَاءِ بَنِى مَخْزُومٍ ، وَمَاتَا عَنْهَا بَعْدَ أَنْ خَلَّفَا لَهَا مَالاً وَثَرْوَةً ؛ فَصَدَّتْ عَنِ ٱلزَّوَاجِ ، وَرَفَضَتْ يَدَ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ الَّتِى مُدَّتْ إِلَيْهَا ، وَوَقَفَتْ نَفْسَهَا عَلَى تَدْبِيرِ مَالِهَا ، وإِنماءِ ثَرْوَتِها . فَلَمَّا جَاءَهَا أَبُو طَالِبٍ ، كَانَتْ بِسَبِيلِ ٱسْتِئْجَارِ أَحَدِ الرِّجَالِ لِلْخُرُوجِ لَهَا فِى تِجَارَتِهَا نَظِيرَ جُعْلٍ تَجْعَلُهُ لَهُ . فَلَمَّا سَأَلَهَا أَبُو طَالِبٍ : هَلْ لَكَ

يَا خَدِيجَةُ أَنْ تَسْتَأْجِرِى مُحَمَّداً ؟

قَالَتْ : لَوْ سَأَلْتَ ذلِكَ يَا أَبَا طَالِبٍ لِبَعِيدٍ بَغِيضٍ فَعَلْنَا ، فَكَيْفَ وَقَدْ سَأَلْتَهُ لِلْقَرِيبِ ٱلْأَمِينِ ؟ وَعَادَ أَبُو طَالِبٍ لِيَقُولَ لِمُحَمَّدٍ : يَا مُحَمَّدُ ، هٰذَا رِزْقٌ سَاقَهُ اللهُ إِلَيْكَ .

وَتَهَيَّأَتْ قَافِلَةُ التُّجَّارِ الْخَارِجَةُ إِلَى الشَّامِ لِلسَّيْرِ ، وَفِيهَا مُحَمَّدٌ فِى تِجَارَةِ خَدِيجَةَ يَصْحَبُهُ غُلَامُهَا مَيْسَرَةُ . وَوَقَفَ أَعْمَامُ مُحَمَّدٍ وَفِى مُقَدِّمَتِهِمْ أَبُو طَالِبٍ يُوَدِّعُونَهُ ، وَيَتَمَنَّوْنَ لَهُ رِحْلَةً طَيِّبَةً ، وَرِبْحاً وَفِيراً ، وَيُوصُونَ مَيْسَرَةَ غُلَامَ خَدِيجَةَ بِٱبْنِ أَخِيهِمْ خَيْراً .

وَسَارَتِ ٱلْقَافِلَةُ فَٱجْتَازَتْ بِمُحَمَّدٍ مَا ٱجْتَازَ مَعَ عَمِّهِ فِى رِحْلَتِهِ ٱلْأُولى ؛ حَتَّى أَتَتْ بُصْرَى بِالشَّامِ ، وَرِفَاقُ مُحَمَّدٍ لَهُ أَحْسَنُ رِفَاقٍ ، كَمَا كَانَ هُوَ لَهُمْ خَيْرَ رَفِيقٍ . أَمَّا مَيْسَرَةُ غُلَامُ خَدِيجَةَ ، فَكَانَ وَكَأَنَّهُ هُوَ غُلَامُ مُحَمَّدٍ ! حُبّاً فِيهِ ، وَطَاعَةً لَهُ !

وَتَصَرَّفَ مُحَمَّدٌ فِيمَا مَعَهُ مِنَ التِّجَارَةِ ، تَصَرُّفَ الْحَكِيمِ الْعَاقِلِ الْمُدَبِّرِ

الْمُجَرِّبِ . فَبَاعَ مَا بَاعَ ، وَقَايَضَ مَا قَايَضَ ، وَأَبْدَلَ مَا أَبْدَلَ ؛ بِالْمُلاَطَفَةِ وَالأَمَانَةِ وَاتِّبَاعِ الْحَقِّ ؛ ثُمَّ أَتَى لِخَدِيجَةَ بِكُلِّ مَا رَغِبَتْ فِيهِ مِنْ مَتَاجِرَ ، وَأَرَادَتْهُ مِنْ بَضَائِعَ .

وَلَمْ تَشْغَلْ كُلُّ هٰذِهِ الْمَشَاغِلِ مُحَمَّداً عَنِ التَّهَجُّدِ وَالاِخْتِلاَءِ إِلَى نَفْسِهِ ، يَزِن بِعَقْلِهِ مَا يَرَى مِنْ مُفَارَقَاتٍ بَيْنَ النَّاسِ فِى أَحْوَالِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ وَمُعْتَقَدَاتِهِمْ ؛ وَلَمْ تُلْهِهِ مَهَامُّهُ عَنِ الْجُلُوسِ سَاعَاتٍ مُفَكِّراً مُتَأَمِّلاً !

وَبَيْنَمَا هُوَ كَعَادَتِهِ فِى إِحْدَى هٰذِهِ الْجَلَسَاتِ بِجِوَارِ جِذْعِ دَوْحَةٍ عَظِيمَةِ الْجِرْمِ ؛ وَمَيْسَرَةُ يَرُوحُ وَيَجِيءُ فِى إِعْدَادِ شُئُونِهِمَا ، وَتَهْيِئَةِ لَوَازِمِهِمَا – أَتَى إِلَى مَيْسَرَةَ رَاهِبٌ مِنْ رُهْبَانِ أَحَدِ الأَدْيِرَةِ الْقَرِيبَةِ ، اسْمُهُ نَسْطُورُ ، وَكَانَ يَعْرِفُ مَيْسَرَةَ مِنْ قَبْلُ لِتَرَدُّدِهِ عَلَى هٰذَا الْمَكَانِ كُلَّ عَامٍ فِى تِجَارَةِ مَوْلاَتِهِ . فَسَأَلَهُ :

مَنِ الَّذِى يَصْحَبُكَ يَا مَيْسَرَةُ ؟

قَالَ مَيْسَرَةُ : شَابٌّ مِنْ قُرَيْشٍ !

قَالَ الرَّاهِبُ : مَا الَّذِى رَأَيْتَ مِنْ صِفَتِهِ ؟

قَالَ مَيْسَرَةُ : الأَمَانَةُ وَالنَّزاهَةُ ، وَدَمَاثَةُ الْخُلُقِ ، وَجُلُوسُهُ السَّاعَاتِ هٰكَذَا كَمَا تَرَاهُ غَارِقاً فِى بِحَارِ التَّفْكِيرِ ، هَائِماً بِرُوحِهِ فِى فُسْحَاتِ الْفَضَاءِ ! لَهُ سَبَحَاتٌ تُشْبِهُ سَبَحَاتِ الْعَابِدِينَ فَعاوَدَ نَسْطُورُ سؤَالَ مَيْسَرَةَ بِلَهْفَةٍ : وَمَا شَكْلُ عَيْنَيْهِ ؟

قَالَ مَيْسَرَةُ ، وقَدْ أَخَذَتْهُ الدَّهْشَةُ مِنْ أَسْئِلَةِ الرَّاهِبِ :

وَاسِعُ الْعَيْنَيْنِ أَدْعَجُهُمَا ، تَشُوبُ بَياضَهُمَا مِنَ الْجَوَانِبِ حُمْرَةٌ خَفِيفَةٌ . تَزِيدُ فِى قُوَّةِ جَاذِبِيَّتِهِمَا ، وَذَكَاءِ نَظْرَتِهِما - أَهْدَابٌ طِوالٌ سُودٌ حَوَالِكُ .

فَقَالَ نَسْطُورُ لِمَيْسَرَةَ وَهُوَ يَتَأَهَّبُ لِلتَّوَجُّهِ حَيْثُ يَجْلِسُ مُحَمَّدٌ : يَامَيْسَرَةُ ، إِنَّ مَنْ يَجْلِسُ بِجِوَارِ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ ، وَتُظِلُّهُ هٰذِهِ الْغَمَامَةُ الْمُنْخَفِضَةُ ، وَصِفَاتُهُ كَمَا تَصِفُ لَيْسَ إِلاَّ نَبِيًّا !

وَتَوَجَّهَ نَسْطُورُ إِلَى مُحَمَّدٍ يَسْأَلُهُ أَسْئِلَةً عَنْ أَدْيَانِ قَوْمِهِ ، لِيَقِفَ عَلَى مَبْلَغِ اتِّبَاعِهِ لَهَا ، وَلِيَتَعَرَّفَ مَدَى احْتِرَامِهِ لِطُقُوسِهَا . فَحَاجَّهُ مُحَمَّدٌ فِيهَا ، وَعَابَ عَلَى قَوْمِهِ عِبَادَتَهَا . فَخَاطَبَهُ الرَّاهِبُ فِى دِينِهِ هُوَ ، دِينِ عِيسَى ؛ فَحَدَّثَهُ مُحَمَّدٌ فِيمَا يَرَاهُمْ فِيهِ عَلَى حَقٍّ ، وَفِيمَا يَرَاهُمْ فِيهِ عَلَى خَطَإٍ .

وَعَادَتْ قَافِلَةُ التُّجَّارِ فى طَرِيقِهَا إِلَى مَكَّةَ ، فَلَمَّا كَانَتْ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ ، قَالَ مَيْسَرَةُ لِمُحَمَّدٍ : يَامُحَمَّدُ ، أَسْرِعْ إِلَى خَدِيجَةَ فَأَخْبِرْهَا بِمَا مَنَحَهَا اللهُ عَلَى وَجْهِكَ مِنَ ٱلرِّبْحِ ٱلْوَفِيرِ !

فَٱنْطَلَقَ مُحَمَّدٌ فَوْقَ بَعِيرِهِ حَتَّى دَخَلَ مَكَّةَ سَاعَةَ الظَّهِيرَةِ ، وَكَانَتْ خَدِيجَةُ حِينَذَاكَ فى عِلِّيَّةٍ لَهَا بِمَنْزِلِهَا ، تَسْتَرْوِحُ رِيحَ الشَّمَالِ الْبَارِدَةَ ، فَأَبْصَرَتْ مِنْ عِلِّيَّتِهَا رَاكِباً يَعْدُو بِهِ بَعِيرُهُ فَوْقَ رِمَالِ الصَّحْرَاءِ الْمُحْرِقَةِ ، وَقَدْ أَظَلَّتْهُ غَمَامَةٌ تَسْبَحُ فَوْقَهُ بِمِقْدَارِ عَدْوِ الْبَعِيرِ . وَحَدَّجَتْ خَدِيجَةُ النَّظَرَ فى هٰذا الرَّاكِبِ تُحَاوِلُ

أَنْ تَتَعَرَّفَ مِنْ شأْنِهِ ، فَمَا شَارَفَ مَنَازِلَ مَكَّةَ حَتَّى تَبَيَّنَتْهُ فَإِذَا بِهِ مُحَمَّدٌ يُسَارِعُ الْعَدْوَ بِبَعِيرِهِ نَحْوَ مَنْزِلِهَا ! !

فَمَا كَانَ مُحَمَّدٌ بِبَابِ خَدِيجَةَ ، حَتَّى كَانَتْ هِيَ فِي اسْتِقْبَالِهِ مُرَحِّبَةً بِعَوْدَتِهِ . وَفِي عِبَارَةٍ فَصِيحَةٍ بَلِيغَةٍ أَجْمَلَ مُحَمَّدٌ لِخَدِيجَةَ تَفَاصِيلَ رِحْلَتِهِ ، وَبَيَّنَ لَهَا مَا بَاعَ وَمَا اشْتَرَى وَعَرَّفَهَا مِقْدَارَ مَابَلَغَهُ رِبْحُهَا فِي تِجَارَتِهَا .

وَاسْتَمَعَتْ إِلَيْهِ خَدِيجَةُ مَسْرُورَةً مُعْجَبَةً مَأْخُوذَةً : سَرَّهَا حَدِيثُهُ ، وَأَعْجَبَتْهَا فَصَاحَتُهُ وَبَلاَغَتُهُ ، وَأُخِذَتْ بِأَمَانَتِهِ وَصِدْقِهِ ؛ وَكَانَ لِمَا جَاءَهَا بِهِ مِنْ رِبْحٍ وَفِيرٍ فَاقَ مَا كَانَ يَأْتِيهَا بِهِ مَنِ اسْتَأْجَرَتْهُمْ فِي تِجَارَتِهَا مِنْ قَبْلِهِ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي نَفْسِهَا .

أَمَّا مَا أَخْبَرَ بِهِ مَيْسَرَةُ مَوْلاَتَهُ مِنْ بَعْدُ عَنْ مُحَمَّدٍ فَقَدْ مَلأَ نَفْسَهَا غِبْطَةً ، وَزَادَهَا إِعْجَاباً وَدَهْشَةً .

أَخْبَرَ مَيْسَرَةُ خَدِيجَةَ مَا كَانَ مِنْ مُحَمَّدٍ بِشأْنِ تِجَارَتِهَا ، وَأَثْنَى لَهَا عَلَى صِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ وَحِرْصِهِ عَلَى مَالِهَا .

ثُمَّ أَعْلَمَهَا مَا كَانَ مِنَ الرَّاهِبِ نَسْطُورَ ، وَمَا تَحَدَّثَ بِهِ عَنْ مُحَمَّدٍ ،

وَأَخْبَرَهَا خَبَرَ الْغَمَامَةِ الَّتِى أَظَلَّتْهُ مِنْ حَرَارَةِ الشَّمْسِ الْمُحْرِقَةِ ، وَمَنَعَتْ عَنْهُ وَهَجَ الْهَجِيرِ طُولَ السَّفَرِ ! ثُمَّ قَالَ :

وَكَانَ أَيْضاً مِنْ أَسْبَابِ عَجَبِى مَا كَانَ مِنْهُ فِى عَوْدَتِنَا ، فَلَقَدْ عَيِىَ مِنِّى بَعِيرَانِ ، وَعَجَزَا عَنِ السَّيْرِ ، وَكُنْتُ فِى الْمُؤَخِّرَةِ ، فَخَشِيتُ التَّخَلُّفَ عَنِ الْقَافِلَةِ ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ، وَأَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ .

فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ مَسَحَ أَخْفَافَ الْبَعِيرَيْنِ بِيَدِهِ ، ثُمَّ أَمْسَكَ بِمِقْوَدِهِمَا ، وَقَادَهُمَا فَسَارَا خِفافاً نِشَاطاً ، كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِمَا شَىْءٌ .

فَقَالَتْ خَدِيجَةُ وَقَدْ أَخَذَهَا الْعَجَبُ : وَاللهِ إِنَّ لَهُ لَشَأْناً عَجَباً ! .

وَلَمْ تَسْتَطِعْ خَدِيجَةُ مُنْذُ هٰذِهِ اللَّحْظَةِ أَنْ تَصْرِفَ فِكْرَهَا عَنِ التَّفْكِيرِ فِى مُحَمَّدٍ ، وَلا أَنْ تُحَوِّلَ ذِهْنَهَا عَنْهُ . فَتَحَوَّلَ إِعْجَابُهَا بِهِ وَسُرُورُهَا مِنْهُ ، حُبًّا وَإِعْزَازاً لَهُ ، وَتَاقَتْ نَفْسُهَا إِلَى أَنْ يَكُونَ هٰذَا الشَّابُّ الأَمِينُ الصَّالِحُ زَوْجاً لَهَا ! !

فَكَّرَتْ خَدِيجَةُ فِى هٰذَا وَتَمَنَّتْهُ وَرَغِبَتْ فِيهِ ! وَهِىَ الَّتِى رَفَضَتْ مِنْ قَبْلُ يَدَ

كِبارِ رِجالِ قُرَيْشٍ وَأَغْنِيائِهِمْ ، وَصَدَّتْهُمْ عَنْها ! وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَكْتُمَ رَغْبَتَها هٰذِهِ ، فَتحَدَّثَتْ بِهَا إِلَى الْمُقَرَّباتِ مِنْها مِنَ النِّسَاءِ . فَقَالَتْ لَها إِحْدَاهُنَّ وَهِيَ نَفِيسَةُ بِنْتُ مُنْبِه : مَاعَلَيْكِ يَاخَدِيجَةُ فِى أَنْ تَتَزَوَّجِى الأَمِينَ ؟ !

قَالَتْ خَدِيجَةُ : وَمَا السَّبِيلُ إِلَيْهِ ؟ !

أَجابَتْ نَفِيسَةُ : أَنَا كَفِيلَةٌ لَكِ بِذٰلِكِ ! !

وَذَهَبَتْ نَفِيسَةُ إِلَى مُحَمَّدٍ تَسْتَدْرِجُهُ لِغَايَتِهَا ، فَقَالَتْ :

مايَمْنَعُكَ أَنْ تَتَزَوَّجَ يَامُحَمَّدُ ؟ !

قَالَ : مَابِيَدِى مَاأَتَزَوَّجُ بِهِ !

قَالَتْ : فَإِنْ كُفِيتَ ذٰلِكَ ، وَدُعِيتَ إِلَى الْجَمَالِ وَالْمَالِ وَالشَّرَفِ ، أَلا تُجِيبُ ؟ .

قَالَ : فَمَنْ هِيَ ؟

قَالَتْ خَدِيجَةُ !

وَبُوغِتَ مُحَمَّدٌ ، لَقَدْ أَعْجَبَهُ مِنْ خَدِيجَةَ أَدَبُهَا وَحَزْمُهَا ، وَكَانَ مَالَمَسَهُ

فِيهَا مِصْدَاقاً لِمَا كَانَ يَسْمَعُهُ مِنْ قَوْمِهَا عَنْهَا ، حَيْثُ كانُوا يُلَقِّبُونَهَا بالطَّاهِرَةِ ! وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِ أَنْ يُفكِّرَ فى ٱلزَّواجِ مِنْهَا ، لِمَا يَعْلَمُ مِنْ رَدِّهَا أَشْرَافَ قُرَيْشٍ وَأَغْنِيَاءَهَا عَنْهَا .

فَقَالَ : ولٰكِنْ ، كَيْفَ لِى إِلَى خَدِيجَةَ ؟

فَقَالَتْ نَفِيسَةُ كَمَا قَالَتْ لِخَدِيجَةَ مِنْ قَبْلُ : عَلَىَّ ذٰلِكَ !

وَذَهَبَ مُحَمَّدٌ إِلَى أَبى طَالِبٍ يُنْبِئُه نَبَأَ خَدِيجَةَ ، وَدَهِشَ أَبو طالِبٍ لِهٰذَا النَّبَإِ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ لاَ يَعْهَدُ فى ٱبْنِ أَخِيهِ غَيْرَ قَوْلِ ٱلْحَقِّ والصِّدْقِ ، فَلَمْ يُنْكِرْهُ ، وَلٰكِنَّهُ قَالَ :

عَجَباً يَابْنَىَّ أَنْ تَرُدَّ خَدِيجَةُ سَيِّدَةُ قُرَيْشٍ ذَوِى ٱلْمَالِ وَالْجَاهِ ، ثُمَّ تَرْتَضِيكَ أَنْتَ بَعْلاً لَها !

ثُم أَرْدَفَ أَبو طالِبٍ يَقُولُ :

وَلٰكِنَّكَ يَابْنَىَّ إِنِ ٱفْتَقَرْتَ فى ٱلْمَالِ ، فَأَنْتَ غَنِىٌّ فى الشَّرَفِ وَالنَّسَبِ !

فَقَالَ مُحَمَّدٌ : يَاعَمِّى ، إِنَّنِى لاَطَمَعَ لِى فى مَالٍ ، وَلاَحَاجَةَ بِى إِلَيْهِ .

وَذَهَبَ أَبُو طَالِبٍ مَعَ إِخْوَتِهِ أَعْمَامِ مُحَمَّدٍ ، يَطْلُبُونَ يَدَ خَدِيجَةَ مِنْ عَمِّهَا عَمْرِو بْنِ أَسَدٍ وَأَخِيهَا عَمْرِو بْنِ خُوَيْلِدٍ لاِبْنِ أَخِيهِمْ مُحَمَّدٍ . فَقَبِلاَ طَلَبَهُمْ عَلَى ٱلْفَوْرِ !

وَسُرْعَانَ مَا حُدِّدَ يَوْمُ ٱلزَّوَاجِ ، فَأَصْدَقَ مُحَمَّدٌ خَدِيجَةَ عِشْرِينَ نَاقَةً .

ثُمَّ زُفَّتْ سَيِّدَةُ قُرَيْشٍ ، إِلَى أَمِينِ قُرَيْشٍ ! ! .

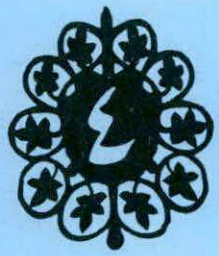

كانَ مُحَمَّدٌ إِذْ ذَاكَ فى عُنْفُوانِ شَبابِه : كانَ شَابًّا وَسِيماً ، جَمِيلَ الطَّلْعَةِ ، رَبْعَةً فى الرِّجالِ ، لَيْسَ بالطَّوِيلِ الْبائنِ ، وَلاَ بالْقَصِيرِ الْمُتَرَدِّدِ ؛ ضَخْمَ الرَّأْسِ ، ذَا شَعْرٍ رَجْلٍ شَدِيدِ سَوَادُهُ ، مَبْسُوطَ الْجبِينِ فَوْقَ حاجِبَيْنِ سَابِغَيْنِ مُنَوَّنَيْنِ مُتَّصِلَيْنِ ، وَاسِعَ الْعَيْنَيْنِ أَدْعَجَهُمَا ، تَشُوبَ بَيَاضُهُمَا فى الْجَوَانِبِ حُمْرَةٌ خَفِيفَةٌ ، تَزِيدُ فى قُوَّةِ جَاذِبِيَّتِهِمَا وَذَكاءِ نَظَرَيْهِمَا – أَهْدَابٌ طِوَالٌ حَوَالِكُ ، مُسْتَوِى الأَنْفِ دَقِيقَهُ ، مُفَلَّجَ الأَسْنَانِ ، يُرْسِلُ لِحْيَةً كَثَّةً ، عالِىَ الْعُنُقِ جَمِيلَهُ ، عَرِيضَ الصَّدْرِ ، رَحْبَ السَّاحَتَيْنِ ، أَزْهَرَ اللَّوْنِ ، غَلِيظَ

ٱلْكَفَّيْنِ وَٱلْقَدَمَيْنِ ، يَسِيرُ فى خُطُواتٍ سَرِيعَةٍ ثابِتَةٍ ، وَقَدْ أَلْقَى بِجِسْمِهِ إِلَى ٱلْأَمَامِ . يَرَى النَّاظِرُ فى وَجْهِهِ سِيمَا التَّفْكِيرِ وَالتَّأَمُّلِ ، وَيَقْرَأُ فى نَظْرَتِهِ مَعَانِى سَامِيَةً آمِرَةً لاتَخْضَعُ لِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَتُخْضِعُ غَيْرَهَا لأَمْرِهَا .

وَكانَتْ حَيَاةُ مُحَمَّدٍ مَعَ خَدِيجَةَ أَجْمَلَ حَيَاةٍ . وَٱلْعَيْشُ مَعَهَا أَهْنَأَ عَيْشٍ : فَخَدِيجَةُ ٱمْرَأَةٌ ذَكِيَّةٌ حَكِيمَةٌ مُجَرِّبَةٌ ، عَرَفَتْ مُيُولَ مُحَمَّدٍ فَحَقَّقَتْهَا لَهُ ، وَأَدْرَكَتْ رَغَباتِهِ ، فَسَاعَدَتْهُ عَلَى نَيْلِهَا .

وَكانَتْ مُيُولُ مُحَمَّدٍ هِيَ الصِّدْقُ فى ٱلْقَوْلِ ، وَالأَمَانَةُ فى ٱلْعَمَلِ ، وَتَجَنُّبُ مَجَالِسِ الصَّخَبِ وَالضَّجِيجِ ، وَالنُّزُوعُ إِلَى التَّأَمُّلِ وَٱلْوَحْدَةِ ، فَكَفَلَتْهَا لَهُ خَدِيجَةُ ، وَعمِلَتْ مَا وَسِعَهَا فِيمَا يَوَدُّ وَيُحِبُّ فَظَلَّ مُحَمَّدٌ عَلَى عَهْدِهِ ٱلْقَدِيمِ : يَخْرُجُ إِلَى فَضَائِهِ ٱلْوَاسِعِ ٱلْمُحَبَّبِ إِلَى نَفْسِهِ الطَّلِيقَةِ يَهِيمُ بِرُوحِهِ فِيهِ مَاشَاءَ أَنْ يَهِيمَ ، وَيَتَأَمَّلُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَأَمَّلَ .

وَلَمْ يُهْمِلْ مُحَمَّدٌ شُئُونَ خَدِيجَةَ ، وَلَمْ يُلْهِهِ تَهَجُّدُهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهَا الزَّوْجَ ٱلْكُفْءَ ٱلْقَدِيرَ : رَعَى لَهَا أَمْوَالَهَا ، وَأَشْرَكَ مَعَهُ مَنْ رَأَى فى شَرِكَتِهِ حُسْنَ

ٱلْمُعَامَلَةِ ؛ وَعَهِدَ مِنْهُ ٱلأَمَانَةَ وَالصِّدْقَ ؛ وَلَمْ يَكُنْ مَيْلُهُ إِلَى ٱلْوَحْدَةِ لِيَمْنَعَهُ مِنْ أَنْ يُخَالِطَ قَوْمَهُ أَحْيَاناً ، فَيَسْتَمِعْ إِلَى أَحَادِيثِهِمْ بِإِمْعَانٍ وَرَوِيَّةٍ .

كَانَ مُحَمَّدٌ حَسَنَ ٱلإِصْغَاءِ قَلِيلَ ٱلْكَلَامِ ، بَعِيداً عَنِ ٱللَّجَاجَةِ ، وَكَانَ لَايَخْلُو كَلَامُهُ مِنْ مُلَاطَفَةٍ وَمُفَاكَهَةٍ ، وَلَا يَخْلُو وَجْهُهُ مِنَ ٱبْتِسَامَةٍ حُلْوَةٍ حَبِيبَةٍ إِلَى مُحَدِّثِيهِ تَتَّسِعُ أَحْيَاناً فَتَبْلُغُ مَبْلَغَ الضَّحِكِ . لِذَا كَانَ مُحَدِّثُوهُ يُقَدِّرُونَ كُلَّ مَايَنْطِقُ بِهِ ؛ وَكَانَ مُخَالِطُوهُ يَحْتَرِمُونَ رَأْيَهُ ، وَيَعْمَلُونَ بِهِ .

وَشُغِلَ مُحَمَّدٌ بِمَا شُغِلَ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ جَمِيعاً ، بِمَا أَصَابَهُمْ مِنْ حَدَثٍ عَظِيمٍ ! فَقَدْ طَغَى عَلَى بَلَدِهِمْ مَكَّةَ سَيْلٌ جَارِفٌ ، ٱنْحَدَرَ إِلَيْهَا مِنَ ٱلْجِبَالِ الْمُحِيطَةِ بِهَا ، فَهَدَمَ كَثِيراً مِنْ مَنَازِلِهَا ، وَصَدَّعَ جُدْرَانَ ٱلْكَعْبَةِ ، وَأَوْهَنَ أَحْجَارَهَا ؛ مِمَّا دَعَا أَهْلَ مَكَّةَ إِلَى التَّفْكِيرِ فِى أَمْرِهَا ، وَفِى كَيْفِيَّةِ إِصْلَاحِهَا . فَهِيَ بَيْتُ عِبَادَتِهِمْ ، وَمَوْئِلُ أَصْنَامِهِمْ ، وَإِلَيْهَا يَأْتِى النَّاسُ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ لِيَطُوفُوا بِهَا ، فَتَرُوجُ بِذٰلِكَ تِجَارَتُهُمْ . وَيَكْثُرُ عَمَلُهُمْ ، وَتَسَاءَلَ الْقَوْمُ : مَاذَا يَفْعَلُونَ ؟ أَيَنْقُضُونَ بِنَاءَهَا الْقَدِيمَ ، وَيُعِيدُونَ بِنَاءَهَا مِنْ جَدِيدٍ ؟ !

وَمَنِ ٱلَّذِى يَنْقُضُ بِنَاءَهَا ؟! وَمَنِ ٱلَّذِى يُعِيدُ بِنَاءَهَا ؟ !

كَانُوا يَخَافُونَ رَبَّ الْكَعْبَةِ ، وَيَخْشَوْنَ أَنْ يُصِيبَهُمُ السُّوءُ إِذَا مَا أَقْدَمُوا عَلَى هَدْمِهَا ؛ وَلٰكِنْ مَاذَا يَعْمَلُونَ ؟ !

لَابُدَّ مِنَ ٱلْإِقْدَامِ عَلَى ذٰلِكَ قَبْلَ أَنْ تَنْهَدِمَ أَحْجَارُ الْكَعْبَةِ وَتَنْهَارَ جُدْرَانُهَا ، فَأَقْدَمُوا فِى خَوْفٍ وَخَشْيَةٍ وَتَرَدُّدٍ ! وَلٰكِنْ أَنَّى لَهُمْ بِأَدَوَاتِ ٱلْبِنَاءِ اللَّائِقَةِ ، لِتَكُونَ ٱلْكَعْبَةُ مَتِينَةً صَلْدَةً وَأَنَّى لَهُمْ بِٱلْبَنَّاءِ ٱلْمَاهِرِ ٱلَّذِى يُجِيدُ بِنَاءَ ٱلْأَحْجَارِ وَيُحْسِنُ تَنْسِيقَهَا !

وَلَمْ تَطُلْ حَيْرَةُ ٱلْقَوْمِ ، فَقَدْ سَاقَتِ الصُّدَفُ الطَّيِّبَةُ لَهُمْ سَفِينَةً مُحَمَّلَةً بِٱلْأَخْشَابِ ، وَبِأَدَوَاتِ الْبِنَاءِ ؛ مَمْلُوكَةً لِرَجُلٍ رُومِىٍّ أَتَى بِهَا مِنْ مِصْرَ ؛ فَأَصَابَهَا عَطَبٌ ، وَجَنَحَتْ إِلَى جُدَّةَ . وَهُنَاكَ أَفْرَغَتْ حُمُولَتَهَا الَّتِى كَانَتْ تَقْصِدُ بِهَا إِلَى ٱلْحَبَشَةِ فِى ٱنْتِظَارِ سَفِينَةٍ أُخْرَى لِتَحْمِلَهَا ، فَسُرْعَانَ مَاجَاءَ نَبَؤُهَا إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ ، فَأَوْفَدُوا وَفْداً مِنْهُمْ إِلَى جُدَّةَ لِيَحْصُلُوا عَلَى حَاجَتِهِمْ مِنْهَا . وَمَاعَرَفَ صَاحِبُ السَّفِينَةِ وَٱسْمُهُ « بَاقُومُ » حَاجَتَهُمْ ، حَتَّى أَجَابَ طَلَبَهُمْ ،

وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ بَنَّاءٌ مَاهِرٌ ، فَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُرَافِقَهُمْ لِيُعَاوِنَهُمْ فِيمَا هُمْ بِشَأْنِهِ .

وَلَمَّا عَايَنَ « بَاقُومُ » ٱلْكَعْبَةَ أَخْبَرَ الْقَوْمَ أَنَّ بِنَاءَهَا هَيِّنٌ سَهْلٌ وَإِنَّمَا يَلْزَمُ أَنْ يُقَامَ بِسَاحَتِهَا عَدَدٌ مِنَ ٱلأَعْمِدَةِ ، يُعْرَش مِنْ فَوْقِهَا سَقْفُهَا ٱلَّذِى أَرَادَ ٱلْقَوْمُ أَنْ يُقِيمُوهُ لَهَا لِيَحْفَظَهَا وَيَدْرَأَ عَنْهَا ٱلأَعَاصِيرَ ؛ فَوافَقَ الْقَوْمُ عَلَى إِقَامَةِ ٱلأَعْمِدَةِ .

وَكَانَ بِمَكَّةَ رَجُلٌ قِبْطِىٌّ مِصْرِىٌّ ٱسْمُهُ « صُلَيْحٌ » يَعْرِفُ نَجْرَ ٱلْخَشَبِ وَتَسْوِيَتَهُ ، فَدُعِىَ إِلَى مُعَاوَنَةِ بَاقُومَ .

وَٱقْتَسَمَتْ قُرَيْشٌ جَوَانِبَ ٱلْكَعْبَةِ ، بِحَيْثُ تَقُومُ كُلُّ قَبِيلَةٍ عَلَى هَدْمِ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِهَا ٱلأَرْبَعَةِ وبِنَائِهِ .

وَجَاءَتْ سَاعَةُ ٱلْهَدْمِ . . فَعَاوَدَ الْقَوْمَ ٱلْخَوْفُ ، وَأَخَذَتْهُمُ ٱلْخَشْيَةُ ، وَٱنْتَابَهُمُ التَّرَدُّدُ ، فَصَلَّوا ، وَدَعَوا ، وَأَهْدَوا ، وَنَحَرُوا . . ثُمَّ تَقَدَّمَ أَحَدُهُمْ وَهُوَ ٱلْوَلِيدُ بْنُ ٱلْمُغِيرَةِ فِى خَوْفٍ ، وَأَمْسَكَ ٱلْمِعْوَلَ بِيَدٍ مُرْتَعِشَةٍ وَهَدَمَ رُكْناً مِنْ أَرْكَانِ الْكَعْبَةِ !

وَحَبَسَ ٱلْجَمِيعُ أَنْفَاسَهُمْ ، وَمَكَثُوا يَنْتَظِرُونَ مَاسَيَحُلُّ بِٱلْوَلِيدِ ، وَمَا سَوْفَ

يُنْزِلُهُ ٱللهُ بِهِ . ومرَّتِ اللَّيْلَةُ ، وَأَصْبَحَ الصَّبَاحُ ، وَلَمْ يُصَبْ ٱلْوَلِيدُ بِسُوءٍ ! حِينَئِذٍ أَقْدَمَتْ قُرَيْشٌ عَلَى هَدْمِ الْكَعْبَةِ بِقُلُوبٍ مُطْمَئِنَّةٍ ، وَنُفُوسٍ رَاضِيَةٍ .

وَنَقَلَتْ قُرَيْشٌ ٱلْأَحْجَارَ مِنَ ٱلْجِبَالِ ٱلْمُجَاوِرَةِ ، وَشرعَتْ تَبْنِى . وَكَانَ فِى مُقَدِّمَةِ ٱلْمُعَاوِنِينَ عَلَى هٰذَا ٱلْعَمَلِ مُحَمَّدٌ وَأَعْمَامُهُ .

وَٱرْتَفَعَ ٱلْبِنَاءُ ، وَآنَ وَضْعُ ٱلْحَجَرِ ٱلْأَسْوَدِ فِى مَكَانِهِ مِنَ ٱلْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ . حِينَئِذٍ ٱخْتَلَفَ ٱلْقَوْمُ فِيمَنْ يَحُوزُ هٰذَا الشَّرَفَ وَيَكُونُ لَهُ حَقُّ الْفَخَارِ فِى وَضْعِهِ ! فَكُلُّ فَرِيقٍ يَرَى أَنَّهُ أَحَقُّ بِنَيْلِ هٰذَا الشَّرَفَ ، وَالٱسْتِئْثَارِ بِهٰذَا ٱلْفَخَارِ .

وَاتَّسَعَتْ هُوَّةُ ٱلْخِلَافِ ، وَتَفَرَّقَتِ ٱلْقُلُوبُ الَّتِى ٱئْتَلَفَتْ وَٱحْتَمَتْ فِى سَبِيلِ بَيْتِ ٱللهِ .

وَمرَّتْ لَيَالٍ خَمْسٌ ، وَالْقَوْمُ عَلَى حالِهِمْ ، لايَنْتَهُونَ إِلَى رَأْىٍ ، وَزَادَمِنْهُمْ بَنُو عَبْدِ الدَّارِ وَبَنُو عَدِىٍّ فَتَحَالَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى أَنْ يَحُولُوا بَيْنَ أَىِّ قَبِيلَةٍ ، وبَيْنَ هٰذَا الشَّرَفِ الْعَظِيمِ ، وأَقْسَمُوا عَلَى ذٰلِكَ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ، وَقَرَّبَ بَنُو عَبْدِ ٱلدَّارِ جَفْنَةً مَمْلُوءَةً دَماً ، وَأَدْخَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِيهَا تَوْكِيداً لِمَا أَقْسَمُوا عَلَيْهِ ،

وَٱسْتَعَدُّوا لِلْفَصْلِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ بِحَدِّ السَّيْفِ . حِينَئِذٍ وَقَفَ فِيهِمْ أَبُو أُمَيَّةَ بْنُ ٱلْمُغِيرَةِ ٱلْمَخْزُومِيِّ ، وَكَانَ أَسَنَّ شَيْخٍ فِى قُرَيْشٍ . وَلَهُ بَيْنَهُمْ مَنْزِلَةٌ طَيِّبَةٌ ، وَكَلِمَةٌ مُطَاعَةٌ . فَقَالَ يُنَاشِدُهُمْ :

يَامَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، كُلُّكُمْ فِى السُّؤْدُدِ وَالشَّرَفِ سَوَاءٌ ، فَلاَ تَتَشَاحَنُوا وَلاَ تَتَنَافَرُوا ؛ ثُوبُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَدَعُوا ٱلْحُكْمَ فِيمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ إِلَى أَوَّلِ قُرَشِيٍّ يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَابِ الصَّفَا .

وَرَضِىَ ٱلْمُتَشَاحِنُونَ بِهٰذَا ٱلرَّأْىِ ، وَجَلَسُوا يَنْتَظِرُونَ وَعُيُونُهُمْ مُعَلَّقَةٌ بِبَابِ الصَّفَا ؛ يَتَرَقَّبُونَ مَنْ سَتَسُوقُهُ الأَقْدَارُ لِلْحُكْمِ بَيْنَهُمْ . وَمَالَبِثَ أَنْ أَهَلَّ مِنَ ٱلْبَابِ شَابٌّ وَسِيمٌ ، يُسْرِعُ فِى سَيْرِهِ فَمَا رَآهُ ٱلْقَوْمُ ٱلْمُتَرَقِّبُونَ حَتَّى صَاحُوا :

ٱلأَمِينُ ! ٱلأَمِينُ ! قَدْ رَضِينَا بِحُكْمِ مُحَمَّدٍ ٱلأَمِينِ .

وَسَارَعُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ، يَعْرِضُونَ عَلَيْهِ قَضِيَّتَهُمْ ، وَٱسْتَمَعَ مُحَمَّدٌ إِلَيْهِمْ ، ثم قَال : هَلُمُّوا إِلَىَّ ثَوْباً .

فَأُتِىَ إِلَيْهِ بِهِ ، فَنَشَرَهُ ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ ٱلْحَجَرَ ٱلأَسْوَدَ ، فَوَضَعَهُ فِيهِ . ثُمَّ قَالَ :

لِيَأْخُذِ كَبِيرُ كُلِّ قَبِيلَةٍ بِطَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ هٰذَا الثَّوْبِ ، ثُمَّ ٱرْفَعُوهُ جَمِيعاً .

فَتَقَدَّمَ كُبَرَاؤُهُمْ ، فَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الثَّوْبِ وَرَفَعُوهُ ، وَٱلْحَجَرُ ٱلأَسْوَدُ بِدَاخِلِهِ حَتَّى حَازَى مَكَانَ وَضْعِهِ مِنْ بِنَاءِ ٱلْكَعْبَةِ . فَتَنَاوَلَهُ مُحَمَّدٌ مِنَ الثَّوْبِ ، وَوَضَعَهُ فِى مَوْضِعِهِ ، بَيْنَ فَرَحِ ٱلْقَوْمِ وَتَهْلِيلِهِمْ بِزَوَالِ الشَّرِّ ، وَٱنْحِسَامِ النِّزَاعِ .

ثُمَّ أَتَمَّتْ قُرَيْشٌ بِنَاءَ ٱلْكَعْبَةِ ، وَعَرَشَتْ لَهَا سَقْفاً فَوْقَ عُمُدٍ أُقِيمَتْ لِهٰذَا الغَرَضِ ، وفُتِحَ بَابٌ يُؤَدِّى إِلَى جَوْفِهَا حَيْثُ أُقِيمَ الصَّنَمُ هُبَلُ ! ! .

وَهٰكَذَا كَانَ مُحَمَّدٌ حَبِيباً إِلَى قَوْمِهِ ، رَفِيعَ ٱلْمَكَانَةِ بَيْنَهُمْ ، صَادِقاً فِيهِمْ ، مَسْمُوعَ ٱلْكَلِمَةِ عِنْدَهُمْ .

رقم الإيداع	٢٠٠٢/١٦٠٥٣
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6351-6

٧/٢٠٠٢/٥٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)